صناعة الموت

ازعـم بأن الذين يبالغون فـي إظهار ذعرهم من أي ميـول موضوعية للإصلاح السياسـي والتجديد الديني والتطور الحضاري ، لا يقدمون في آخر المطاف سـوى خطاب ثقافوي بائس .. ولعل مأســـــاة (طالبان) كضحية لتلك الثقافة ـ عند سـقوطها المدوي والسـريع ـ لا تختلف عن مأساة الشـعب الأفغاني أثناء حكمها ، لأن وجهي تلك المأسـاة يشـيران إلى فداحة الثمن الإنساني الذي يتم دفعه لقاء الاسـتغراق في خطاب الهوية والخصوصية الثقافـوي ، حيث تصل معاناة الضحايا مستوى مأساوياً غير مسبوق ، فينضم إليهم ـ على نحو تراجيـــدي ـ جلادوهم في نهايـة المأســـاة ، كضحايا إضافيين لأوهام ثقافة ميتة تصادر الخصوبة والحياة ، وتشـيع العقم والموت . ولذلك جاءت النهاية المأساوية لحركة (طالبان) وتنظيم (القاعـدة) وحلفائهم المجاهدين الذين جاؤوا من مشـارق الأرض ومغاربهـــا ، وجعلوا من أفغانســتان منطلقاً لجهادهم ضد فسطاط الكفر .. جاءت تلك النهاية دليلاً على هزيمة خطاب ثقافوي منعزل عن السياق الحضاري والتاريخي !!

أحمد الحبيشي

بوسعنا القول إن المبادرات الطليعية التي اجترحتها النخب العربية الجديدة في البلدان التي شهدت الولادة الأولى لتعليم الفتاة ، ما كانت لتنجح لولا الدور الذي لعبه الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي وزملاؤه العائدون من فرنسا ، في تحرير العقل العربي من العُصاب الثقافوي الغارق في خدر الخصوصية والسلفية، والمسجون في اقبية التشدد والتطرف.

كسر الطهطاوي خطاب الخصوصية والهوية الثقافوي بخطاب آخر معاكس .. وجاء كتابه الخالد (تخليص الابريز في تلخيص باريز) تأكيداً على إدراكه لضرورة تلاقح الثقافات، خصوصاً وانه رأى بعينيه إسلاماً في الغرب حتى وان لم ير فيه مسلمين .. بينما طمست الخصوصية المفترضة لثقافة التشدد جوهر الإسلام الحق في بلاد المسلمين، بعد ان أشهرت انقطاعها الحضاري وإفلاسها الثقافي ، واثبتت عجزها عن الاستجابة لرياح التغيير وتحديات القيم الإنسانية المشتركة التي أنجبتها الحضارة الحديثة .

كانت المهمة الأولى لمفكري عصر التنوير وعلى رأسهم الشيخ رفاعة الطهطاوي صعبة للغاية لأنها تبدأ بتحرير الرجل وتحرير المرأة ـ بما هي نصف المجتمع ـ من الثقافة التي تحتقر المرأة وتصفها باقذر الصفات الجاهلية على نحو مافعله الغزالي والذهبي وبن تيمية وغيرهم من ائمة الفقه السلفي بشقيه السني والشيعي .

وضع الطهطاوي مداميك خطابه النهضوي من خلال نقد الخطاب الثقافوي الغارق في خصوصيته السلفية الظلامية ، ولذلك سهل على خصومه أن يتهموه بالتغريب .. وحين شجب مؤسسة الحريم بصفتها سجناً ، ذهب الطهطاوي إلى حد أبعد ، حيث طالب برفع سن الزواج للفتاة ، ودعا إلى تعليم البنات وتشغيل المرأة ، ودراسة اللغات الاجنبية وتشجيع الترجمة ، وبذلك وجه الطهطاوي ضربة موجعة لخطاب الخصوصية الثقافوي ، بقدر ما وجه أيضاً ضربة مماثلة للخطاب الثقافي الاستعماري الذي ادرك من خلال الرصيد المعرفي للمستشرقين، اهمية إحياء ودعم الافكار السلفية التي اشتهرت بمعاداتها للعقل ومحاربة التفكير النقدي وتكفير أهل الرأي والتحريض ضدهم ، وذلك بهدف تكريس تخلف العالم العربي والإسلامي وتمزيق وحدته الداخلية ، والحيلولة دون إستعادة دوره الحضاري .

يكفي المرء ان يجري مقارنة سريعة بين موقفين فكريين لاثنين من أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث ليكتشف طريقتين مختلفتين في التعامل مع صدمة الاحتكاك بالغرب في القرن التاسع عشر .. فقد صدم المؤرخ والفقيه عبدالرحمن الجبرتي في مشاهداته التي تضمنها كتابه الشهير « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » بما شاهده أثناء الحملة الفرنسية على مصر من توقير واحترام للمرأة من قبل القادة الفرنسيين الذين اصطحبوا معهم زوجاتهم الى مصر ، حيث قال : « حتى ان المرء ليشعر بالقرف والاشمئزاز لما يبديه الفرنجة الفرنسيس من موافقة الرجل لمراد زوجته وعدم مخالفة رأيها ، والسماح لها بالخروج من بيتها للعمل والمعاش، فتقوى بذلك شوكتها ويصبح لها قول مسموع في الأمور الخاصة والعامة ، فمجالس الرجال والنسوة متشاركة ، ولايجلس الرجال الاّ بعد أن تجلس النسوة ، وإذا دخلت المرأة ولم تجد مقعداً قام رجل وأقعدها في مقعده ثم يخدم نفسه بنفسه فيحضر له مقعداً يستريح عليه ، وهذا من بئس حضارتهم الساقطة والزائلة بإذن اللّه».

اما الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي فقد أصدر بعد ثلاثة عقود من صدور كتاب الجبرتي كتابه الخالد « تخليص الإبريز في تلخيص باريز » والذي رصد فيه مشاهداته أثناء دراسته في فرنسا، مشيراً الى « أن المرأة المسلمة تعامل مثل متاع البيت وهو جماد لا روح فيه بينما هي في باريز على مكانة سامية ومقام قريب من الروح حتى ليخيل للمرء أن الفرنسيس يدللونها كالأطفال الذين أودع اللّه فيهم البراءة والوعد .. فإن أحسنا رعايتهم صفت سرائرهم وتدفقت منها ينابيع البراءة بالعطاء ، وهي وديعة اللّه في أحبابه ، فيطال الأمة منهم صلاحاً في دينهم وعملهم ، وخيرا في اليفاعة والرجولة وهو وعد اللّه الحق » .

من المفارقات المثيرة للاهتمام ان الطهطاوي الذي وضع المرأة في مصاف أحباب اللّه وانتقد وضعها في عداد متاع البيت، أورد عدداً من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي ترفع من شأن المرأة، كما أشار الى المخالطة بين الرجال والنساء في الجامع وبيت اللّه الحرام والتجارة ومجالس العلم في العهد النبوي وعهد الخلفاء الراشدين ، باستثناء ما اختص به اللّه زوجات الرسول من حقوق النبوة، وكذا ما اختص به البيوت من حرمات .. اما الجبرتي فقد استشهد للتدليل على سوء ملة الفرنجة تجاه المرأة بأقوال الغزالي والذهبي وابن تيمية والشاطبي ، وهي علامة فارقة بين صدمة الوعي التي تسعى الى إعادة بناء الثقافة وإعادة اكتشاف الهوية في ضوء قيم الإسلام التي أسهمت في صنع الحضارة الإنسانية الحديثة، مقابل صدمة اللاوعي التي تتقوقع في نطاق هوية وخصوصية موروثتين عن ثقافة جاهلية بعيدة عن قيم الإسلام ، ومنقطعة عن مفاعيل الحضارات ، ولم تعد ترى في المرأة غير الشيطان وسوء الخلق وفي أحسن احوالهـــا « غراب أعصم بين مائة غراب » !!

في دراسته القيمة حول موقف بعض الجماعات الإسلامية من الغرب والتي نشرتها مجلة «العربي» الكويتية في عددها رقم (402) الصادر في شهر مايو 1992م ، اجرى المفكر الاسلامي حسين أحمد أمين مقاربة تاريخية بين هذا الموقف وبين موقف مماثل له في الاديان الأخرى ، مشيراً إلى أن التجارب التاريخية دلت على ظهور جماعات دينية انعزالية في المجتمعات التي تمر بهزات عنيفة ، حيث تميل هذه الجماعات إلى إغلاق الابواب أمامها وتنزع إلى العيش في طوطم خاص بها ، وتتجنب الانفتاح أو الاتصال بالتيارات العلمية والفكرية التي عرفتها مجتمعاتهم في أوقات مختلفة . ويوضح د. حسين أمين فكرته بتفصيل أدق بقوله : « كان هذا هو ما حدث أيضاً في العالم الاسلامي مع بداية الثلاثينات من هذه القرن حين بدأت جماعات اسلامية تُروِّج لدعوة شديدة الإختلاف عن دعوة المصلحين الإسلاميين من اتباع الطهطاوي ومحمد عبده ، بل ورأت في هؤلاء المصلحين دعاة التغريب، إذ هم لم يطعنوا في قيم الغرب بل انتحلوها للاسلام » .

ويضيف حسين أمين قائلاً : « ذهبت هذه الجماعات بدءاً من الإخوان المسلمين إلى أن الإسلام بمفرده قادر على التصدي لهذه التحديات دونما حاجة إلى اقتباس من حضارات أخرى، غير أنهم لم يفلحوا إلا في ابراز حفنة من النقاط والقضايا التي ركزوا عليها والحّوا في تكرارها إلى حد الإملال واعنى بها موضوع الربا وفائدة البنوك وسفور المرأة وتحديد النسل والحدود ، والنفور من استخدام مناهج البحث العلمي والتاريخي في العلوم الانسانية .. ولذلك فان مفهوم المعرفة والمعلومات عندهم انها ثابتة وخالدة وقد نجم عن ذلك ثلاثة عواقب :

الأولى : أن المعرفة عندهم لم تعد عنصراً ابداعياً ديناميكياً في الفكر مما اسهم في قهر كل نشاط فكري حر بدعوى مخالفته لعقيدة السلف .

الثانية : أن اعتبار المعرفة دائرة مغلقة وثابتة ، يجعل من الصعب تقبل او ابداع المعارف الجديدة ما لم تجد لها سنداً في فكر السلف الأقدمين .

الثالثة : أن سبيل اكتساب المعرفة هو تجميعها من كتب الأسلاف أو الكتب الحديثة القائمة على كتب الأسلاف لا التحليل والاستنباط والتجربة والفكر الحر ، وكلها عواقب خلقت عند غير المسلمين تصوراً خاطئاً بأنه لا يمكن أن يكون للإسلام مستقبل ما دام عاجزاً عن مسايرة التطور».

يقيناً أن ثمة حاجة ماسة لمعالجة فجوة التخلف الحضاري التي يعيشها العالم العربي والإسلامي .. ولا يمكننا عبور هذه الفجوة الاّ بإكتشاف الإسلام في داخل هذه الحضارة التي أعطت الإنسان انجازات عظيمة ، ونقلت حياته الى مستوى متطور، حيث تعلق البشرية على منجزاتها العلمية والتقنية تطلعات مشروعة لتجاوز مشاكل الفقر والتخلف والمرض .

مامن شك في أن التمسك بالخطاب الثقافوي السلفي الملتبس بالدين سيقودنا اما الى الإنعزال وبالتالي تعميق الفجوة الحضارية ، او الخضوع لما يريده ورثة الخطاب الاستعماري في الغرب ، وهو خطاب ثقافوي أيضاً يسعى الى فرض خيارين لا ثالث لهما : خيار الإنعزال عن الحضارة او خيار الخضوع والتبعية للقوى الإمبريالية التي تمتلك مفاتيحها وتحرك مفاعيلها !!

لعل المطلوب هو إحياء فكر رواد التنوير وتطويره بعد إعادة قراءته بالنظر الى المتغيرات الهائلة التي حدثت في بنية الحضارة المعاصرة خلال القرنين الماضيين ، وتجاوزت بالضرورة محددات سؤال النهضة الذي طرحه رواد فكر التنوير في العالم العربي والإسلامي في القرن التاسع عشر ، لأن إحياء فكر رواد التنوير يؤهلنا لاكتشاف القيم الحضارية الحديثة ، وهي لا تتعارض بالضرورة مع القيم الإسلامية الصحيحة والأصيلة .. مع الأخذ بعين الإعتبار ان الحضارة الإسلامية أسهمت في صنع القيم الحديثة عبر سيرورة التحولات الحضارية .

ولاريب في أن الثقافة السلفية البدوية التي ابتعدت عن جوهر الإسلام غير مؤهلة لاكتشافه داخل حضارة العصر ، ناهيك عن ان النزعة الماوضوية لهذه الثقافة كان لها دور كبير في وجود هذه الفجوة الحضارية، والحيلولة دون عبورها منذ ظهورها في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، اللذين يؤرخان لبداية تراجع الحضارة الإسلامية.. وعليه فان نقد هذه الثقافة يبدأ بإعادة الإعتبار للعقل الذي تعرض للعدوان والتغييب على يدها منذ حوالي تسعمائة عام !!

وحين نعيد الإعتبار للعقل ورواده الأوائل، سيصبح بالإمكان التخلص من تأويل هذه الثقافة للإسلام ، وهو تأويل عاد بنا الى ثقافة الجاهلية وابتعد كثيراً عن الإسلام . ولابد أن يتكامل هذا النقد مع نقد آخر مواز لمظاهر الخلل في الحضارة المعاصرة ، وهو الخلل الذي يغذي الكثير من الاختلالات المسؤولة عن غياب التوازن في ميدان انتاج واستهلاك الحضارة ، وتهميش غالبية شعوب وبلدان الكرة الأرضية ، ووقوع أكثر من نصف البشرية تحت خط الفقر ، وتصاعد نزعات الهيمنة والسيطرة التي تسعى الى تكريس التبعية السياسية والاقتصادية والثقافية في العلاقات بين الدول والشعوب والثقافات ، وصولاً الى بروز ميول خطيرة تتجه نحو مصادرة التنوع الثقافي عبر فرض بعد واحد للسياسة الدولية والحضارة العالمية .

وحتى لا نخطئ الطريق يتوجب القول بأننا لسنا وحدنا من يهمه هذا النقد، فهناك اوساط أكاديمية وإجتماعية ودينية من الغرب والشرق تشارك على حد سواء في نقد مظاهر الخلل الذي يشوه بعض جوانب الحضارة الحديثة ، ولذلك فإن نقدنا لهذه الحضارة يجب أن ينطلق من الإيمان بالقيم الإنسانية المشتركة لمختلف الثقافات والأديان والأمم التي يوحدها مصير مشترك .. بمعنى أن يتكامل نقدنا للآخر مع النقد الذاتي الذي سبقتنا اليه قوى حية في الغرب أسهمت وماتزال تسهم في نشر مبادئ الحرية والديمقراطية والعدالة وحقوق الإنسان والسلام والمساواة والتسامح الديني والتضامن الإنساني ، وتصدت وما تزال تتصدى لنزعات السيطرة والهيمنة والإلغاء ، وتدعو إلى الحفاظ على البيئة وحماية الطبيعة وإعلاء القيم الإنسانية المشتركة.

خلاصة القول ان نجاحنا في النقد الإيجابي لمظاهر الخلل في الحضارة العالمية السائدة يتوقف على مدى نجاحنا في تأسيس رؤية ثقافية منفتحة على الآخر ، ومحفزة للعقل بوصفه أداة للتفكير الموضوعي والبحث العلمي ، الأمر الذي من شأنه أن يساهم في تطوير فهمنا للعالم الواقعي الذي نعيش فيه ، والتفاعل مع متغيراته وتجاوز رواسب الجمود والتعصب والانغلاق وغيرها من الكوابح التي تكرس الإقامة الدائمة في الماضي ، وتحول دون الخروج من فجوة الإنقطاع الحضاري ، وصولاً الى الانتقال من ثقافة الهوية الى ثقافة المشاركة ، وهو المدخل الوحيد لمشاركة الشعوب والأمم والثقافات المختلفة في حراك الحضارة الإنسانية المعاصرة .

عن / صحيفة (26 سبتمبر)

المبادرات الطليعية التي اجترحتها النخب العربية الجديدة في البلدان التي شهدت الولادة الأولى لتعليم الفتاة ، ما كانت لتنجح لولا الدور الذي لعبه الشيخ الأزهري رفاعة رافع الطهطاوي وزملاؤه العائدون من فرنسا ، في تحرير العقل العربي من العصاب الثقافوي الغارق في خدر الخصوصية والسلفية ، والمسجون في أقبية التشدد والتطرف والانغلاق

التمسك بالخطاب الثقافوي السلفي الملتبس بالدين سيقودنا إما إلى الانعزال وبالتالي تعميق الفجوة الحضارية ، أو الخضوع لما يريده ورثة الخطاب الاستعماري في الغرب ، وهو خطاب ثقافوي أيضاً يسعى إلى فرض خيارين لا ثالث لهما : خيار الانعزال عن الحضارة أو خيار الخضوع والتبعية للقوى الإمبريالية التي تمتلك مفاتيح الحضارة الحديثة وتحرك مفاعيلها في مجالات الإنتاج وأسواق الاستهلاك !!

العالم العربي والإسلامي بحاجة إلى إحياء فكر رواد التنوير وتطويره بعد إعادة قراءته بالنظر إلى المتغيرات الهائلة التي حدثت في بنية الحضارة المعاصرة خلال القرنين الماضيين ، وتجاوزت بالضرورة محددات سؤال النهضة الذي طرحه رواد فكر التنوير في العالم العربي والإسلامي في القرن التاسع عشر ، لأن إحياء فكر رواد التنوير يؤهلنا لاكتشاف القيم الحضارية الحديثة ، وهي لا تتعارض بالضرورة مع القيم الإسلامية الصحيحة والأصيلة .. مع الأخذ بعين الاعتبار أن الحضارة الإسلامية أسهمت في صنع القيم الإنسانية الحديثة عبر سيرورة التحولات الحضارية.

زواج الصغيرات

أمل الحسين

غريب حالة ازدياد تزويج الصغيرات في وقت نعتقد أن الوعي أصبح محركاً جيداً في كثير من المواقف، مما اضطر بعض الجهات أن تعلن عن نواياها لإصدار قوانين لتحديد سن الزواج، من هذه الجهات وزارة العدل حيث نشر في صحف محلية أن هناك مصادر مطلعة أكدت بتعاون بين وزارة العدل وجهات حكومية لإقرار نظام لتحديد سن زواج الصغيرات بحيث يمنع زواج الفتاة التي لم تتجاوز الرابعة عشرة..

وحقيقة نتمنى ألا يصدر هذا القرار فليس فيه تحسين للوضع فما الفرق بين طفلة عشر سنوات وأربع عشرة سنة؟ كلها مرحلة طفولة لم تصل الفتاة لمرحلة النضج بعد وهو أهم شروط الزواج وإقامة أسرة، كما يفترض بأن النضج هو العامل الرئيسي لاستيفاء شرط الاستئذان الذي لا يتم زواج البكر إلا به .. ورغم أن معظم أولياء الأمور الذين يزوجون بناتهم في عمر صغير يؤكدون موافقتهن إلا أن هذه الموافقة مجروحة، فما هي خلفية ابنة الرابعة عشرة لأستشيرها في أمر مصيري؟ ابنة الرابعة عشرة ومافوق قليلاً لايسند إليها اختيار ملابسها بشكل كامل فهل يسند لها اختيار زوج؟! ماذا تعرف عن صفات الرجال لأستشيرها فيهم؟ ثم نقول استئذان!! أسألكم باللّه يامن تعقدون دورات تدريبية ما قبل الزواج عندما تنضم لصفوفكم ابنة الرابعة عشرة كيف توصلون لها المعلومات التي لابد أن تتعرف عليها قبل الزواج؟ مع أني على يقين أنه لم يسبق أن التحقت أي فتاة في هذا العمر في مثل هذه الدورات فحالة الزواج توضح مستوى الوعي العام لدى الأسرة، أتصور أن ابنة الرابعة عشرة يتم إغراؤها بأنه سيسمح لها باستخدام الجوال والمكياج وغرفة نوم خاصة فتسعد بها وليس بالزواج!!.

هل جسدها الضعيف قادر على تحمل أعباء الحمل والولادة؟ الرأي الطبي يؤكد أن الحمل قبل سن الثامنة عشرة عالي الخطورة لأن تكوين الفتاة الجسدي لا يكتمل قبل هذا العمر فقد لا تتم حملها كاملاً لأن جسمها لم يكتمل نموه بعد وقد تتعرض للإجهاض المتكرر وتصاب بفقر الدم، نزيف دموي حاد، ارتفاع في ضغط الجنين أو ما يسمى بالتسمم الحملي، ويمكن انفجار الرحم، اختلال في وظائف أعضاء الجسم والجهاز العصبي، آلام الظهر المزمنة بسبب الحمل المبكر الذي يسبب ضغطاً على العمود الفقري قبل اكتمال نموه فيسبب آلام ظهر مبرحة طوال العمر، فضلاً على أن الزواج المبكر يعتبر عملية طردية مع الأمية في الإناث.

تشير بعض الأخبار الصحفية إلى أن الجهات الأمنية عند تبليغها بعزم تزويج طفلة تستدعي ولي أمرها وتأخذ عليه تعهداً بعدم إتمام المشروع إلا أن كثيراً من أولياء الأمور لا ينفذون التعهد فيتم الزواج، أتصور أن أولياء الأمور يعرفون جيداً أنه لن يطالهم أي عقوبة فعلية سوى كتابة ورقة تضاف لكومات الورق!! المؤلم أنه حتى لو تم الفصل بين الطفلة وزوجها هذا الفصل لن يعالج الجرح النفسي والجسدي الذي تعرضت له الطفلة وقد يبقى أثره طوال عمرها، المشكلة ليست في زواج الطفلة من رجل مسن المشكلة في الزواج بحد ذاته، قصت لي صديقة عن زواج طفلة تعرفها عن قرب لم تتجاوز السادسة عشرة من عمرها لم تبق مع زوجها الشاب الذي درس آخر سنة في الجامعة سوى 20يوماً ثم أرجعها لمنزل والدها فما كان من أهلها إلا أن وجهوا لها صور اللؤم والحرمان وكانت الطفلة تبكي مستغربة إرجاعها لمنزل والدها فهي ترى نفسها سيدة منزل من الطراز الأول فملابس الزوج وغرفته نظيفة وتراعي أهله وتلعب مع أخواته فلماذا أرجعها؟! أرجعها لأنها لم تمكنه من نفسها فكلما اقترب منها أصابتها نوبة بكاء وهستيريا.. والدتها تسقيها الماء المقري فيه طلباً لشفائها من العين المصابة بها نصحتها صديقتي بأن تشرب هي الماء.

ممثلة وكاتبة سعودية